{ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ } * { وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً } * { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }(1-3)

يقول الحق جلّ جلاله: {إِذا جاء نَصْرُ اللهِ} " إذا " ظروف لِما يُستقبل, و العامل فيه: {فسبِّح}، و النصر: الإعانة و الإظهار على العدوّ، و الفتح: فتح مكة، أو فتح البلاد, و الإعلام بذلك قبل الوقوع من أعلام النبوة، إذا قلنا نزلت قبل الفتح، و عليه الأكثر، و المعنى: إذا جاءك نصر الله، و ظَهَرْتَ على العرب، و فتح عليك مكة أو سائر بلاد العرب، فَأَكْثِر من التسبيح و الاستغفار، تأهُّباً للقاء أو شكراً على النِعم، و التعبير عن حصول الفتح بالمجيء للإيذان بأنّ حصوله على جناح الوصول عن قريب.

و قيل: نزلت أيام التشريق بِمِنىً في حجة الوداع، و عاش بعدها النبيُّ صلى الله عليه و سلم ثمانين يوماً، فكلمة (إذا) حينئذ باعتبار أنَّ بعض ما في حيزها ـ أعني: رؤية دخول الناس أفواجاً ـ غير منقض بعدُ. و كان فتح مكة لعَشْرٍ من شهر رمضان، سنة ثمان، و مع النبي صلى الله عليه و سلم عشرة آلاف من المهاجرين و الأنصار و طوائف العرب، و أقام بها خمس عشرة ليلة. و حين دخلها وقف على باب الكعبة، ثم قال: **"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و هَزَم الأحزابَ وحده "**، ثم قال: **"يا أهل مكة؛ ما ترون إني فاعل بكم؟"** قالوا: خيراً، أخ كريم، و ابن أخ كريم، قال: **"اذهبوا فأنتم الطُلقاء"** فأعتقهم رسولُ الله صلى الله عليه و سلم، و قد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة، و كانوا لهم فيئاً، و لذلك سُمي أهل مكة

الطُلقاء، ثم بايعوه على الإسلام، ثم خرج إلى هوازن.

ثم قال تعالى: {و رأيتَ الناسَ} أي: أبصرتهم، أو علمتهم {يدخلون في دينِ الله} أي: ملة الإسلام، التي لا دين يُضاف إليه تعالى غيرها. و الجملة على الأول: حال من "الناس"، و على الثاني: مفعول ثان لرأيت، و {أفواجاً} حال من فاعل "يدخلون" أي: يدخلون جماعة بعد جماعة، تدخل القبيلة بأسرها، و القوم بأسرهم، بعدما كانوا يدخلون واحداً واحداً، و ذلك أنَّ العرب كانت تقول: إذا ظفر محمدٌ بالحرم . و قد كان آجرهم الله من أصحاب الفيل . فليس لكم به يدان، فلما فُتحت مكة جاؤوا للإسلام أفواجاً بلا قتال، فقد أسلم بعد فتح مكة بَشَرٌ كثير، فكان معه في غزوة تبوك سبعون ألفاً. و قال أبو محمد بن عبد البر: لم يمت رسولُ الله صلى الله عليه و سلم وفي العرب كافر، و قد قيل: إنَّ عدد المسلمين عند موته: مائة ألف و أربعة عشر ألفاً. هـ.

فإذا رأيتَ ما ذكر من النصر و الفتح {فَسَبِّح بحمد ربك} أي: قل سبحان الله، حامداً له، أو: فصلّ له {و استغفره} تواضعاً وهضماً للنفس، أو: دُمْ على الاستغفار، {إِنه كان} و لم يزل {تواباً}؛ كثير القبول للتوبة.

روت عائشةُ رضي الله عنها أنَّ النبيّ صلى الله عليه و سلم: لَمّا فتح مكة، و أسلمت العرب، جعل يُكثر أن يقول: **" سبحانك اللهم و بحمدك، و أستغفرك و أتوب إليك، يتأوّل القرآن "** يعني في هذه السورة. و قال لها مرة: **" ما أراه إلاَّ حضور أجلي "** ، و تأوَّله العباس و عمر رضي الله عنهما بذلك بمحضره صلى الله عليه و

سلم فصدّقهما، و نزع هذا المنزع ابن عباس و غيره.

الإشارة: إذا جاءتك أيها المريد نصر الله لك، بأن قوّاك على خرق عوائد نفسك، و أظفرك بها (و الفتح) وَ هُوَ دُخُوْلُ مَقَامِ الْفَنَاءِ، وَ إِظْهَارُ أَسْرَارِ الْحَقَائِقِ, وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُوْنَ فِيْ طَرِيْقِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ، أَيْ: نَزِّهْ رَبَّكَ عَنْ رُؤْيَةِ الْغَيْرِيَّةِ وَ الأثنينية فِيْ مُلْكِهِ، وَ اسْتَغْفِرْهُ مِنْ رُؤْيَةِ وُجُوْدِ نَفْسِكَ. قال القشيري: و يقال النصر من الله بأن أفناه عن نفسه، و أبعد عنه أحكام البشرية، و صفّاه من الكدورات النفسانية، وَ أَمَّا الْفَتْحُ فَهُوَ: أَنْ رَقَّاهُ إِلَى مَحَلِّ الدّنو، و استخلصه بخصائص الزلفة، و ألبسه لباس الجمع، و عرّفه من كمال المعرفة ما كان جميع الخلق متعطشاً إليه. هـ. و قال الورتجبي (فَسَبِّح بحمد ربك) أي: سبِّحه بحمده لا بك، أي: فسبِّحه بالحمد الذي حمد به نفسه، و استغفِره من حمدك و ثنائك و جميع أعمالك و عرفانك، فإنّ الكل معلول؛ إذ وصف الحدثان لا يليق بجمال الرحمن، إنه كان قابل التوب من العجز عن إدراك كنه قدسه، و الاعتراف بالجهل عن معرفة حقيقة وجوده. هـ. و صلّى الله على سيدنا محمد و آله.